

## الإمام العلامة

### ابن طولون الصالحي الدمشقي

880 – 953 هـ، 1475 – 1546 م

قال في تسلسل الحديث:

ارحم محبك يا رشا  
فحديث دمعي من جفا  
ترحم من الله العلي  
كمسلسل بالأولي

وله القول:

ميلوا عن الدنيا ولذاتها  
وابتغوا الحق كما ينبغي  
فإنها ليست بمحمودة  
فإنها الأنفاس المعدودة  
فأطيب المأكول من نحلة  
وأفخر الملبوس من دودة

أبيات لمحمد بن طولون، ولكن لم ينظم إلا الشعر القليل، وإنما إقباله على العلوم المتنوعة والتي بلغت 38 علماً، كانت له نافعة ومفيدة، فقدّمته صورة ومثلاً يحتذ به لضمود الثقافة العربية الإسلامية في عصر الاضطراب، نهاية المملوكي وبداية العثماني.

فمن أنت يا ابن طولون؟

قام ابن طولون رحمه الله بترجمة ذاتية لنفسه في كتاب سماه "الفلك المشحون في أحوال ابن طولون"، إضافة إلى ما ترجمه كثير من العلماء في القرون التالية لعصره، كالغزي، وابن العماد.. وغيرهم.

وهكذا بالمحصلة لنجد أعلام كبار كتبوا لأعلام كبار، سبقوهم في الزمن، ولكن أخذوا منهم العبر والعظات في سيرهم، فكانوا لهم خير خلف خير سلف.

ونحن نرجو الله تعالى أن ينالنا الخير في قراءة سيرهم، وينفعنا بذلك ويقبلنا فنكون من المقبولين والصالحين، اللهم آمين آمين، نقرأ الفاتحة الشريفة إلى أرواحهم الطاهرة رجاء القبول.

نعود لترجمة ابن طولون، بعد أن تساءلنا بشغف من هو ابن طولون؟؟  
إنه أحد أكبر الشخصيات العلمية بدمشق، وأكبر مؤرخيها بعد ابن عساكر، في القرن العاشر  
الهجري والسادس عشر الميلادي.

### اسمه ولقبه:

شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشهير بابن طولون الدمشقي الصالحي  
الحنفي، الإمام العلامة المسند المؤرخ.

ولد في الصالحية، القائمة على سفح جبل قاسيون، والمطلة على دمشق، والتي كانت بمثابة  
المركز العلمي العالمي، منذ أن هاجر إليها المقادسة في القرن السادس الهجري، فراراً بدينهم من  
الصلبيين، كما أسلفنا في سيرتهم، فعجت الصالحية بالعلماء والفقهاء والمحدثين والصالحين،  
وتناثر في جنبات الصالحية، المدارس العديدة والمساجد، والخوانق والزوايا وغير ذلك من الأوابد  
العلمية، في فترات متباعدة، من مصائب نزلت على تلك البلاد والعباد، فكان علماءه نماذج  
يُحتذى بهم، ومنهم ابن طولون رحمه الله.

ففي أوائل سنة 880 هـ، كان العهد المملوكي في الشام قد بلغ من الفساد والانحطاط مبلغه  
الكبير، فولد محمد بن علي بن طولون، بالقرب من المدرسة العمرية، لأبوين تركيين، ولكن قدر  
الله له وشاء، أن ينشأ يتيماً منذ الصغر، فرعاه عمه قاضي القضاة ومفتي الديار الجمال بن  
طولون.

وأخذ ابن طولون في المضي والسير على ما سار عليه عمه، في طلب العلم منذ الصغر، فلا  
نسى كم لأثر الأسرة في تحديد وجهة ومعالم المولود.

لقوله صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ  
يُمَجِّسَانِهِ).

كان لحنم وحفظ القرآن الكريم منذ الصغر، هو مبدأ انطلاقه للعلوم والمعرفة في عصره،  
وساعده في ذلك ذكائه الخارق وذاكرته القوية، مما ساهم في تكوين ثقافته الإسلامية وشخصيته

العلمية ونستطيع أن نستفيد من هذا العرض ، إطلاعنا على الجانب الثقافي لذلك العصر، كيف السير في مركبه، وذلك من سيرة هذا الفتى العالم.

انصرف إلى الفقه الحنفي، فحفظ المختار للمجد البغدادي، والهداية للمرغيناني .. وغيرهم، ثم انصرف إلى القراءات فحفظ الجزرية والشاطبية، وقرأ القرآن بالقراءات .. ثم انصرف إلى الحديث، فقرأ على ما يقرب من 500 شخص خلال عشر سنين، من الصحاح جميعها، ولم يقرأ الحديث رواية فقط وإنما قصد الدراية أيضاً.

ثم اهتم بأصول الفقه فقرأ عدة كتب مع دراستها.

ثم قرأ في التفسير للسيوطي، وللمخشي، وقرأ الفرائض.

واهتم بالعلوم العربية، في النحو، وأصوله، وعلم اللغة، والعروض، والتصريف، وعلم القوافي.

ثم اهتم في علم الكلام قرأ كتب مختارة، وفي المنطق، وفي التصوف، أما التاريخ فقد قرأ للسيوطي الشماريخ، وغيرها.

وقرأ في الطب: للرازي وابن النفيس كتب كثيرة، فكان مقصداً للناس في علومه المتنوعة رحمه الله.

وقرأ وتعلم في علوم الهندسة، ككتاب أشكال التأسيس للشمس السمرقندي، وعلم الحساب ككتاب منظومة الجيب للعلاء الزمزمي .. وغيرها من الكتب.

وعلم الفلك: كشف الحقائق في حساب الدرج والدقائق للمهدي، والكواكب السبعة من مختصر زيج ابن الشاطر، وغير ذلك من كتب الفلك.

وهكذا كانت حياته مليئة بالعلوم، أو بحرف العلوم والتي تجاوزت الـ 38 إلى 72 علماً كما ورد في كتابه الفلك المشحون.

هذه العلوم هي ثقافة عصره، وقد أتىح لابن طولون من خلال هذه الثقافة العلمية الكبيرة الاتصال بعلماء ذلك القرن، والقراءة على أيديهم ونيل الإجازات العديدة من علماء الشام، الذين شهدوا له بعلمه وإتقانه ودرايته، ثم انتقل لعلماء مصر لينال منهم الإجازات عن بعد.

هذا النشاط العلمي الذي تمتع به ابن طولون، مهد له طريق إلى الوظائف المتنوعة التي شغلها وسوف نأتي على ذكرها.

وقبل الماضي في سيرته: لا بد لنا من إعادة لقراءة ما سبق، قراءة تربوية، فابن طولون عاش وترعرع يتيماً، بلا أبوين كما سلف، ولكن عرف كيف يجعل من عمه القاضي الجمال الدين بن طولون قدوة له، فقد عُرف عن عمه بعلمه وخلقه الرفيع النبوي، فأخذ منه وجعله نصب عينيه قدوة له، فأجاد وجاد وبرع وأبدع.

فالقُدوة الصالحة هي خير دليل يهدي بها الأبناء من خلال التأثير بسلوكه وعبادتهم. ومن لطف الله عز وجل لنا أن خلقنا مفضولين على حب التقليد، ليسهل على الإنسان الاقتداء، ولكن .. الاقتداء بمن؟

هذا يعود لدرجة التبصر والفهم على الله عند الآباء، وليكونوا على يقظة وحذر من قدوة أبنائهم لينالوا رضی الله ورضی رسوله.

لقوله تعالى: **(وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ).**

وقبل القدوة والتي هي مرحلة ثانية في حياة الأبناء تربوياً، هناك المرحلة السابقة للقدوة: هي القرآن الكريم والسنة الشريفة في حياة الأبناء تربوياً وأهمية ذلك. فاللبنة الأساسية في حياة الوليد تبدأ بتنظيم قرآنا الكريم في نفسه وروحه وقلبه ومن ثم على لسانه تلقيناً، فكم نرجو من الآباء والأمهات بتنظيم جلسات عائلية لتدريبهم على القراءة وتعويدهم على حبه وتعظيمه. هذا ومع تعويدهم على السلوك النبوي اليومي في حياتهم، ترافق ذلك العمل التربوي العظيم، شحنات الحب والولاء لنبينا الكريم صلى الله عليه وسلم.

أليس هو من قال: **(تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي....)**

صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ).**

شيوخه:

القاضى ناصر الدين بن زُرَيْق السىراج بن الصيرفى، الجمال ابن المبرد، الشىخ أبو الفتح المزى، ابن النعمى، وآخرون .. رحمهم الله.

وكما ذكرنا فقد درس الفقه وقرأ على عدة مشايخ وعلم ذلك العصر. وبقية العلوم والفنون الأخرى.

أما عن تلاميذه وطلابه، فقد أقبلوا عليه ليتعلموا منه وينتفعوا بعلومه، لا بل وأقبل عليه الكبار.

لا ننسى هذا نتاج تحصيله وسعيه العلمى منذ نعومة أظافره، أى منذ الصبا نشأ وترعرع على حب العلم والعلماء، والحرص للانتفاع والفائدة منهم.

### ومن تلامذته:

الشىخ شهاب الدين الطيبى، شىخ الوعاظين والمحدثين فى دمشق.

والشىخ نجم الدين البهنسى خطيب جامع دمشق.

وشىخ الأسلاك إسماعيل النابلسى مفتى الشافعية.

والشىخ زين الدين بن سلطان مفتى الحنفية.

وشىخ الإسلام شمس الدين العيتاوى مفتى الشافعية .. وغيرهم من الكبار.

فقد كان شىخاً لكبار العلماء والشىوخ، فحسب ذلك، أمام نبيه الكرىم صلى الله عليه وسلم، عندما يباهى بمن سلك درب الفلاح والرشد والصالح، للوصول إلى جنة الفردوس، لقوله صلى الله عليه وسلم: **(تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة).**

ويكفيه فخراً أيضاً أمام نبينا، أنه أكتسب ألقاب كثيرة ذات طابع علمى، تكشف لنا جانبه العلمى، منها: المحدث - عالم التراجم - الفقيه - المسند - عالم النحو والتعبير - المؤرخ - وشارك فى علم الطب والفلك .. وغير ذلك.

فأى معذرة شديدة اللهجة وقوية التعبير نحتاج للاعتذار من هؤلاء العلماء الأفاضل أصحاب القامات العلمىة العالىة، أم بأى عبارة أو جملة سنبحث عنها فى وقوفنا يوم العرض والحساب، أم بأى وجهاً نقابل نبينا عند ذلك ونحن نطلب منه الشفاعة، هل نجرؤ على طلبها منه ..؟؟

## مؤلفاته:

لقد ترك نتاج علمي كثير ومؤلفات كثيرة ومتنوعة الفوائد والنفع، فقد بلغت 746 كتاباً، وهذا ليس بعدد قليل، فقد تناولت هذه الكتب موضوعات وعلوم مختلفة، وسنقوم بإلقاء الضوء على بعضها بتعداد ما نستطيع وليس لحصرهم جميعاً، فله في التاريخ والتراجم وأسماء الرجال عدة كتب منها:

- أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين.
- الاختبارات المرضية في أخبار التقي ابن تيمية.
- تبيض القراطيس فيمن دفن بباب الفراديس.
- إعلام الوري بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى.
- التاج الثمين في أسماء المدلسين.
- الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام.
- حور العيون في تاريخ أحمد بن طولون.
- الدرّة النفيسة في ترجمة الست نفيسة.
- الذيل على طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي، ثلاث مجلدات .
- السفينة في تراجم الفقهاء السبعة بالمدينة.
- الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الإثني عشر عند الإمامية.
- عجب الدهر في تذييل من ملك مصر.
- غاية البيان في ترجمة الشيخ رسلان.
- القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحيّة : تناول فيه الصالحيّة كل ما يتعلق فيها مع الوصف الدقيق.

- المعزة فيما يتعلق بالمرّة.

- محن الزمن بين قيس واليمن.

- هداية السالك إلى ترجمة ابن مالك.

.. وغيرها من المؤلفات التي تدفعنا دفعاً للإعجاب بابن طولون، وتدفع عقولنا للسؤال كيف كان له هذه المؤلفات الكثيرة، وبأي هممة وعزيمة قدمها ..؟؟  
 إن مؤلفاته لها قيمة تاريخية هامة جداً، قدمها ابن طولون لتكون إرث إسلامي يتوارثه الأجيال فينفعهم وينتفع ابن طولون وهو يقف بين يدي الله تعالى.  
 لا بل وقبل ذلك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذا مات المؤمن انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).**

لقد استفاد الناس من علمه وإرثه هذه في ثلاث جوانب:

- 1- في التراجم.
  - 2- في تاريخ الدول والحوادث.
  - 3- وفي تاريخ المدن والأماكن.
- وعد ابن طولون من عظماء المؤرخين، ومن الذين جعلوا للتأريخ الإسلامي شأن عظيم، لأسلوبه الذي اتبعه في كتاباته، والتي ميزته عن غيره من العلماء، فقدم علم التأريخ بلباس جديد زاهي موثق بالوصف العمراني الدقيق، وذكر تاريخ البناء مع سيرة لباني، فما فتح المجال أمام القادمين من الأجيال للتقدم في ركب الحضارة الإسلامية، إنشاء الله .

**وظائفه أو المناصب العلمية التي شغلها شيخنا الجليل رحمه الله:**

لقد وصل إلى وظائف علمية عديدة، وبأماكن عدة، لشهرته العلمية التي سبقت عمره الفتي، من هذه الوظائف:

- التدريس والإمامة وقراءة القرآن والتأليف الذي سبق ذكره.
- عين مدرساً في الفقه في المدرسة الماردينية والمدرسة المرشدية مع عمه.
- وعين فقيهاً في جامع الجديد وقراءة القرآن في الخاتونية والدلامية.
- ومدرساً ومقرئاً في المدرسة العمرية.
- ومقرئاً للصحاح في جامع الجديد.
- ومقرئاً ومدرس تحت قبة النسرة في الجامع الأموي.

- إمامة عمارة السلطان سليم، وهو أول من وليها.
- إمامة الخانقاه الیونسیة.
- إمامة الزاویة السیوفیة.
- الخطابة بالمدرسة الركنیة.

ثم عُرض علیه الخطابة فی الأموی والإفتاء فافتنع رحمه الله.

تفرغ لمؤلفاته وتعلیقاته، بخط یده، وتفرغ لطلابہ الذین ازدحموا علیه للانتفاع من علمه رحمه الله.

هذا وتذكر المصادر أن ابن طولون لم یتزوج ولم یعقب له أحد، ولكن بإمكانكم أيها الأخوة الكرام أن تقفوا عند تلاميذه ومن سار خلفه لینال خطوة صحبتہ الکریمة، قفوا وقفة تربویة بقراءة دقیقة وبقلب محب وعقل سائل متفحص، کیف سینال ابن طولون رحمه الله شرف الخیریة فی القول: كنتم خیر خلف لخير سلف.

نسأل الله عز وجل العلم والعمل والإصرار فی العمل، مع الدعاء إلى الله عز وجل بالتوفیق.

### أما عن وفاته:

كان وفاة العالم والمؤرخ ابن طولون فی يوم الأحد 11 جمادى الأول، عام 935 هـ ودفن بتربة عمه القاضي فی سفح قاسيون، قبلي الكهف والخورزمية. رحمه الله تعالى، ورضي الله عنه وعنا، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم آمين آمين يا رب العالمين.

### المراجع:

شذرات الذهب من جن الذهب / لابن العماد.

الأعلام / للزركلي.